ناحية المجون

في الأدب العربي

لسليم خياطه

لكل أمة عظيمة ناحية ماجنة حتى الخلاعة في أدبها . لكن ربما لم تكن هناك أمة بلغت لغتها في أدبها المجوني ما بلغته لغتنا في آدابنا العربية والاسلامية . ويبدو ان شدة طابع هذه الناحية في هذه الآداب تأثرت بعاملين ، الاول : إساءة الاستعمال الطارئة في الحياة الاجتماعية للفكرة الواقعية البديعة : « لا عيب في الدين » . والثاني : ما في اوصاف الملذات الحاصلة للصالح في الجنة من إغراء غير الصالح بتحليلها ، وبالمبالغة فيها بحسب طبعه علاوة على ذلك ، ثم بعدم الشعور ، وفقاً لميله بادئ بإثمه من تعقبتها على الارض . فاذا كانت جائزة المؤمن لذات ناعمة في آخرته ، فلماذا لا تكون له ، وهو دائماً مؤمن — ومن غير زنديق لا يعتبر نفسه مؤمناً — هذه الجائزة في الحاضرة والأمر أضمن ، كما فيه كسب الجنتين ، وإحداهما نقد على منطق الحياتيّ الضحوك ؟ ....

ثم كانت هناك امور كثيرة ننظر إليها اليوم كأشياء أصبحت ، على العموم ، غريبة وبعيدة عن حياتنا الاجتماعية ، ولكنها كانت يومذاك طبيعية مقبولة ومرتبة في النظر والتمثيل وقواعد الحياة المدنية وسهلاتها : من تعدد زوجات ، ورق عائلي رفيق بالقياس الى الرق الروماني ، وانعدام الحالة والفكرة [1] الاجتماعية الحديثة وهذه امور كانت تربة مؤاتية نوعاً ما للافراط النوعي في هذه الناحية من آدابنا العربية . واما المدنية الفارسية والرومية (البزنطية) فليست هي العامل الفعلي او الاجتماعي او الحقوقي فيما ظهر من هذا في الحياة العربية وآدابها . بل إنها قدمت المادة اللازمة من مادي وحسي ومعرفة احتكاك واختلاط وتشبه بالحضارة السابقة النامية ، فالاستعانة بالتفنن في الترف والتلذذ ، حياة وادباً ، اكتساب منها

---

(١) بخصوص الفكرة نجد بذوراً كثيرة منها بل وأزهاراً نامية نمواً يستوقف النظر في المدرسة العقلية الاعتزالية ، المبنية على اعتبار المسؤولية الفردية استناداً الى النظر القدري في الوجود وهو عكس روح الجبرية الدينية في الاسلام . ونجدها كذلك على الخصوص ، في خصم المعتزلة أيضاً ابن حزم ، اكبر نظريي الاسلام بعقلية علمية كما يبدو ، ومن ثم في مفكرين وأدباء وفلاسفة كثيرين غير هؤلاء

خرج الاسلام من بداوة الجاهلية . ولنا في الجاهلية أدلة مثالية على بذور هذا الميل الى التماجن المتطرف . ففي امرىء القيس وحده مثل جد موفق . وفي كثير من حياة الجاهلية وعاداتها وتعبير أهلها ما يشير الى وجود نظر عادي عندهم إلى ما قد نسميه بعضه اليوم مجاجناً خليعاً واموراً لا تخرج عن حدود شهوانية غير خفيفة . وهذا النظر إما هو عادي عندهم ، وإما هو على الاكثر مصطبغ بشعور الفكاهة — فكاهة « وايليه » — او بعاطفة شعر تتراوح ما بين حامية وبين إغريقية الروعة فيما تجلب به اكثر الملهيات الشعرية من جمال رخامي ، مرمري ، مبترد ، بليل . بل كما أننا كثيراً ما ننظر اليوم الى شبان خفافٍ مستهترين كأفذاذ وأبطال « دون جوانيين » يحسدون على حظوظهم الطيبة ومواهبهم المجونية ، كذلك كانت الجاهلية تنظر الى مشهوري سكيريها وتباع ملذاتها . ففي أخبار ماوكها في الحيرة والجن وبصرى ما يشبه ، مع حفظ النسبة ، ولكن بدون نظر استكبار لملوكهم يومذاك ، طرفاً من أخبار يزيد والوليد وسواهما من خلفاء بني أمية وبني العباس وكبار الاشراف والولاة وملوك الطوائف وفي قائليها أمثال المهلهل والأعشى كوالبة في الاسلام والأخطل ومطيع وأكثر من قال شعراً من بعد في غير الحكمة والمواعظ والمراثي والمدائح والوصف . ففي الجاهلية ، طرفة ، أليس هو القائل :

إذا القوم قالوا : « من فتى ؟ » خلت أنني عنيت ، فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة ، ولكن متى يسترفد القوم أرفد
وإن تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تلتمسني في الحوانيت تصطد !
متى تأتني أصبحك كأساً رويّة وإن كنت عنها ذا غنى ، فاغن وازدد !
نداماي بيض كالنجوم ! وقينة تروح علينا بين بُردٍ ومجسد
إذا نحن قلنا : « اسمعينا ! » انبرت لنا على رسلها ، مطروفة ، لم تشدد
رحيب قطاب الجيب منها ، رفيقة بجس الندامى ، بضة المتجرد
وما زال تشرابي الخمور ، ولذتي وبيعي وإنفاقي ، طريفي ومتلدي !
الى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد ! . . .
رأيت بني غبراء [1] لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدد ! . . . [2]
ألا أيهذا اللائمي احضر الوغى ، وأن أشهد اللذات ، هل أنت مخلدي ؟ !
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي !

---

(١) اللصوص (٢) الاغنياء أصحاب خيام الجلد لا الشعر

فلولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى — وجدّك لم أحفل متى قام عُوّدي !
فمنهنّ سبقي العاذلات بشربةٍ : — كُميتٍ ، متى ما تُعلَ بالماء تُزبِدِ
وتقصير يوم الدجن [1] والدجن معجب — ببهكنةٍ تحت الخباء المُعمّدِ !
وكرّي إذا نادى المضاف ، محنّباً ، — كسيد الغضى ذي السورة المتورّدِ :
كريمٌ [2] يُروّي نفسه في حياته ! — ستعلم إن متنا غداً ، أيّنا الصدي ؟ !
أرى الموت اعداد النفوس ، ولا أرى — بعيداً غداً ما أقربَ اليوم من غدِ !
أرى العُمرَ كنزاً ناقصاً كل ليلة [3] — وما تنقص الايام والدهر ينفد !

ولعلّ هذا المتجه القوي في الأدب العربي منذ الجاهلية راجعٌ منذ ذلك الوقت ايضاً إلى ما قد يوافق تسميته بـ « مثالية العكس » . فكما وجد أهل الشمال من الـكندناويين ، وهم في منازل صقيعهم ، صورة جنتهم ومرتع آلهتهم وخالدي ابطالهم في ربوع دافئة ، جنوبية النسيم ، لا تغيب عنها الشمس ، وكما تبلورت عند عرب الجزيرة الملتهبة في جنان ذات قرٍّ وأنهار ، ثم عبّرت عنها اللغة العربية والعقلية ، منذ الجاهلية ، في رسم السعادة والراحة غالباً بألفاظ واستعارات وتشابيه وكنايات البرود والرطوبة ؛ كذلك رأى هؤلاء ايضاً ، وهم في شظف عيش أرض جافة فقيرة ، وبقدر قوة الدافع العكسيّ في ذلك [4] ، سعادة عكس الحال ، في صور مرفّهة ترفيه أحلال جسمانيّ للعيش ، على ما كانوا يتذوّقون مناظرها المثلة واخبارها ومتخيلاتها فيما أحاط بها من مدنية فارسية — بيزنطية ، انحلالية ، كانت صاحبة الصولة ومثالاً أعلى لحياة المدنية والقوة الارضية للإنسان في زمنهم ومدار اقليمهم

(١) الغيم ، والمعنى كثيب راثم الـنداحة (٢) يقصد نفسه بالتفات بديع (٣) اخترت جميع هذه الايات لطرفة لانها تمثل حالة عقلية تامة تنقص صورتها بانقاص شيء منها ، ولانها تبين بكل وضوح وروعة ممكنة نظرة متناسقة مكتملة بمعانيها جميعاً عن ان الجمال الشعري في جوه الاصلي مهما أكثر منه معاداً ومكرراً لا يكثر مع ذلك ، ولا يزيد الا تمتعاً وتجدداً وجمالاً ينبع من جمال

(٤) يلاحظ نفس الامر في « الف ليلة وليلة » بل وفي الاقاصيص الشعبية عند مختلف الامم عموماً وانما هو في « الف ليلة وليلة » أبرز وأقرب الى موضوعنا . فالسعادة المصورة دائماً بحالة هائلة من الترفه والتنعم ، التي تكاد الرسوم الباقية عن بلاطات الخلافة لا تحوي مثل اوصافه حتى لدور اتجار فيها ، نابعة مثل هذه القصص نفسها من اقل الاوساط الشعبية ، من « بافود » (Bas Fonds) القرون الوسطى المصرية ، وفي أصولها السابقة من اوساط هندية او فارسية سابقة شبيهة المرتبة ولا شك . وعطفاً على مثل هذه الحالة النفسية العامة تلت في تعليق في تحقيق « الارليان » على عبارة « خرقة المتصوف » انها الخرقة للمتصوف الغني ، وهي ، يقال لها ، السجادة عند « الدرويش » وذلك من قبيل التمثيل فقط لانه لا يصح هذا الاطلاق دوماً في الواقع اذ كثيراً مثلاً ينكر الدرويش خرقته ولا ينكر الصوفي الثري سجادته

على انهُ لا مجال قط لإنكار أن مجونَ الآداب العربية في الجاهلية وصدر الاسلام أصح طبيعةً ومظهراً جداً منه فيما بعد. فالشهوانية المرضية السياء، هي شهوانية الترف المدني المفرط، والاسراف الاتهي القديم، لم تكن قد لحقت آدابنا بعد بعصلها الانحلالي الشديد. بل على أقصى خلاعة الجاهلية طابعٌ أصيلٌ من حلو السذاجة الفطرية هي دائماً عذبة، تكمة، لطيفة الخشونة البدوية، وجيهة في غاية الجمال، في أروع مرتبة كلاسيكية خالدة منهُ، في قرابةٍ من الجمال الخالد لامةٍ بدوية أخرى كانت تنبأ لوثبتها: جمال الاوذيسة والالياذة. بل في بعض الشعر الجاهلي، في امرىء القيس مثلاً ملمسٌ من « فينس ميلو ». عريٌ كالذءٍ وغلمةٌ سكيرة. جمالٌ قويٌّ، صلبٌ، جزلٌ. جمالٌ لبس المجون فيه تهتكاً متدنياً. ليس مبتذلاً. ليس مقلداً ولا يقلد

***

آدابنا في الجاهلية وصدر الاسلام لا تقابل من أي وجه مجوني بنازع الشهوات اللاحقة فيما بعد. المجون وما يلحقهُ عند العربي الأول نظيف العقلية والشكل معاً، رُجوليٌّ، شعبيٌّ، بدويٌّ، طلقُ المحيا، ساذج وفلسفي الطبع مع ذلك، عليهِ علامة حرية البادية، نورٌ ذهبيٌّ من شمسها، مرارةٌ عميقة الغور من ليلها، ودُعابةٌ لا مباليةٌ لموبٍ من هواءِ نجدها، ومن نسيم الاسية في قراها ومنازل واحاتها الصغيرة تأخذ بترصيعها أضواد القرى. ولا يشبّهُ مجون هذه الآداب وحياتها من وجهٍ مجون آداب الخلاعة الرومانية او الفرنسية وحياتها كذلك. بل يشبّهُ المجونُ اللاحقُ منذ زمن العباسيين بها وتشبّهُ به — خصوصاً الرومانية. ثم انهُ أعلى وأجزل نشاً في تعبيره الشعري عن تعبير جميع هذه الآداب الشعري او النثري. وهذه أبيات طرفة التي قدمنا مثلٌ، لا يعوزها لترى ذلك بكل وضوح وإضاءتها الا قليل من الشرح وبعض المقابلات

انما لا يغيب عن بالنا أننا مع ذلك أصحاب السبق في أخلع الماجن الأدبي. وفي ماجن الحياة كذلك أيضاً، والأدب كما أعيد وكُرّر مرآتها، حتى أنهُ ربما حوت المدنية العربية الاسلامية في الفعل بعض ما لم تحوِ أبلغ مفترقات خلاعة انكليزية أو شيكاغوية او راسبوتينية الشكل، بأقوى حالات هذه في تشذرذها وتهتكها او في أصفق منافقات تسترها. أما في الأدب، فلم تبلغ آداب روما القياصرة، ولا آداب الاستهتار الفرنسي، ولا أظن غيرها أيضاً، حداً من حدود أبي نواس او ابن الحجاج، ولا بعضاً من الدسامة الثقيلة في الأغاني وألف ليلة وليلة. كما وأن آداب تلك المجونية كانت محصورة في ناحيةٍ وكتاباتٍ معينة كاد كثيرٌ منها أن يكون

كمواضيع خاصة لاعادة لقلة انتشار معرفة القراءة والكتابة وانحصار الأدب في طبقة محدودة من الناس . أما صفة الشهوة التي تتسم بها النكت والتصورات ، فتجدها متفشية ، مستمرة عادية الأس والترتيب ، في مجرى عام من مظاهر الحياة والآثار الكتابية العربية . واذا أنت فتحت قاموساً عربياً من هذه القواميس الرائعة ، الفيروزآبادي مثلاً ، وأخذت تقرأ فيه من أي صفحة ، لم يطل بك الأمر ، على ما أظن ، حتى ترى في اللغة ، كما صارت على أيامه وكما عبرت عن عقلية وحياة بأصولها ومستحدثاتها ، مصداقاً لما أزعم

***

ويحلو لي ان أمثل على شيء من هذا القبيل بمخطوط طريف رأيته مرة عند كتبي دمشقي قرب الجامع الاموي، وكان اسمه، على ما أذكر، «تحفة العروس» . قال لي الكتبي أن مؤلفه واحد إما يعرف « بالتجاني » ، وهو دمشقي ، او «البجاني» ، وقد يكون مغربياً ، وأن السبب في هذه الحيرة كون الاسم في مفتتحه على ما يبدو الساعة لذاكرتي ، لم يكن منقطاً . غير أنه يخطر في بالي الآن تحقيق للويس شيخو اليسوعي ، في حواش له على كتاب « طبقات الامم » للقاضي أبي القاسم ساعد الأندلسي ، حول اسم مؤلف عربي اختلف فيه أيضاً بين « تجاني » و « بجاني » . فلعله كيفما صحت هويته ، يكون الذي قصده وذكر كتبه أبو القاسم هو نفس صاحبنا مصنف « تحفة العروس »

لم أستطع يومئذ اقتناء هذا المخطوط ، فاكتفيت بأن قرأت الكثير منه عند الكتبي . رأيته على نمط « رجوع الشيخ الى صباه » ولكنه أرقى كثيراً . إذ هو كتاب أدب وأخبار على الطراز الجاحظي أو الجوزي . ومواضيعه ، وان كانت كلها في تجهيز لذات الجسد ، الا أنها سكت على أسلوب الفن الكتابي العربي ، فهو إذن، كتاب جهرة وماسطة من النثر والشعر الأدبي المعروف المثال ، وسمته الخاصة أن أشد عنايته باللذات . قد لا يقصد إثارة الشهوة باللذات عمداً ومباشرة، ولا هو يسرد ضروب فنون الاستمتاع الجنوني وغرائبه فحسب . بل عند مؤلفه هذه الثمرة الفنية الحسناء في انه يستهدف دقة الوصف وحسن الحديث ، مع ثروة الاخبار والروايات الغريبة والنكات الطريفة ومع ذلك ، فادة ثروته شديدة الوطء من وجهة الاخلاق الجنسية ، كما قد تصح مثلاً ممتازاً على باب المجون في سفر الادب العربي

إنه لمخطوط تروسطي غريب . وهو من احسن الامثلة التي وقعت عليها وأرى تقدمها على صفة المجون في الأدب العربي اللاحق . وليتني حزته يومذاك حتى كنت أضبط الكلام عنه أكثر اليوم.